﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يوسف: 58 - 60]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقَةُ بين مُكْنَةِ يوسفَ ومَجيءِ إخوتِه للكيلِ وردِّهم حتّى يكتملَ العددُ بأخيهم

بعدَ أن أخبرتِ الآياتُ السّابقةُ عن تمكينِ يوسفَ ﷺ في الأرض، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ وكان أحدُ مظاهرِ هذا التّمكين أنّه أصبحَ المُتحكِّمَ بإدارة خزائنِ أرضِ مصرَ، وهي الخزائنُ الّتي تُدَّخَرُ فيها الأموالُ والغلالُ، وكانتِ الدّولةُ قدِ ادَّخرت في سبعِ سنينَ كثيرًا منَ الغلالِ، تحسُّبًا للمجاعةِ الّتي كانت مُنتظرةً، بسببِ نُضوبِ ماءِ النّيل وجدْبِ الأرض، وقد ظهرتْ أماراتُ هذا في رُؤيا الملك الّتي عبَّرَها له يوسفُ ﷺ، وهو تعبيرٌ لا يكونُ بهذه الدّقةِ الّتي صدَّقَها الواقعُ بحصولِ كلِّ ما قاله ﷺ في التّعبيرِ إلّا من خلال الوحْيِ، فهو ليس تعبيرًا بمعنى التّعبيرِ المعروفِ، ولكنّه كان إنباءً بالغيب في صورة تعبيرِ الرّؤيا لحكمةٍ قضاها ربُّ العالمين.

فلمّا حصلَ ما حصلَ "فأجدبَتْ جميعُ أرضِ مصرَ وما والاها من بلاد الشّامِ وغيرِها، فأخرجَ ما كان ادّخرَه من غلالِ سبْعِ سنينَ بالتّدريجِ كما حدَّ له العليمُ الحكيمُ، فتسامعَ به النّاسُ فجاؤوا للامتيارِ منه من كلّ أَوْبٍ"[1]، وكان ممّن جاءه للامتيار إخوتُه، فدار بينه وبينهم حوارٌ؛ لأنّه قد عرفَهم؛ بل كان ينتظرُ قدومَهم، أمّا هم فلم يَعرفوه؛ لظنِّهم أنّه قد هلك ثمّ لِما طرأَ عليه من تغيُّرٍ منذ وقتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/145.

أن أَلقَوه في الجُبِّ، فقد كان وقتَها غلامًا صغيرًا، وأيضًا لِما طرأَ عليه من "مهابة المُلك وشدّةِ الحاجة وهما يُوجبان كثرةَ الخوف، وكلُّ ذلك ممّا يمنعُ منَ التّأمّلِ التّامِّ الّذي عنده يحصلُ العِرفانُ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنكِرُونَ﴾: اسمُ فاعل، جمعُ مُنْكِرٍ، أصلُ مادَّتِه (نكر)، وهو أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خلاف المعرفةِ الَّتي يَسكنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشَّيْءَ وأَنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبله قلبُه ولم يعترفْ به لِسانُه، والبابُ كلُّه راجعٌ إلى هذا، والإنْكارُ: خلافُ الاعتراف[2]، والنَّكِرةُ نقيضُ المعرفة[3]، والإنكارُ: الجحودُ[4]، والإنكارُ: ضِدُّ العِرْفانِ، يُقال: أنكرتُ كذا، ونَكَرْتُ، وأصلُه: أن يَرِدَ على القلبِ ما لا يتصوَّرُه، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ. قال تعالى: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[5].

2) ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: اسمٌ جَذْرُهُ (جهز)، وله أصْلٌ واحِدٌ؛ هو: شَيْءٌ يُعتقدُ ويُحْوى نحو الجَهازِ وهو مَتاعُ البَيْتِ. وجَهَّزْتُ فُلانًا: تَكَلَّفْتُ جَهازَ سَفَرِهِ[6]، وهو ما يحتاجُ إليه في وَجْهِه[7]، وجَهَّزْتُ فلانًا، إذا هيَّأتَ جهازَ سَفَرِه، وتجَهَّزْتُ لأمرِ كذا؛ أيْ: تهيَّأتَ له[8]، وجَهازُ السَّفرِ: ما يحتاجُ إليهِ المرءُ في سَفرِه[9]، و"جهّزتُ القوم تجهيزًا، إذا تكلّفتَ لهم جَهازَهم للسّفر، وكذلك جَهازُ العروس والميّتِ، وهو ما يحتاجُ إليه في وجهه"[10]، والقرّاء كلُّهم على فتح الجيم في قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، وجِهاز (بالكسر) لغةٌ ليستْ بجيّدةٍ[11].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/476.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(3) الخليل، العين: (نكر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نكر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهز).
(7) الخليل، العين: (جهز).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (جهز).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهز).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهز).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهز).

3) ﴿أُوفِي﴾: فعلٌ مضارعٌ جَذرُه (وفى)، وهو أصلٌ يدلُّ عَلَى إِكْمالٍ وَإِتْمام. مِنْهُ الوَفاءُ: إِتْمامُ العَهْدِ وإِكْمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أَوْفَى، فهو وفيٌّ، ويقولونَ: أَوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إِذا قَضَيْتَهُ إِيّاهُ وافيًا. وَتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واسْتَوْفَيْتُهُ: إِذا أَخَذْتَهُ كُلَّه، حتَّى لَمْ تترك منه شيئًا، ومنه يُقالُ للمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[1]. ووَفَى يفي وفاءً فهو وافٍ، ووفيتَ بعهدك، وكلُّ شيءٍ بلغَ تمامَ الكمالِ، فقد وَفَى وتمَّ، ومنه: كيلٌ وافٍ، ورجلٌ وَفِيٌّ: ذو وفاء[2]. وأوفى الكيلَ هنا بمعنى: أتمَّهُ ولم يُنْقِص منه شيئًا[3].

4) ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: كالَ البُرَّ يَكيلُ كيْلًا، والبُرُّ مَكيلٌ[4]، والكَيْلُ: المِكيالُ، والكَيْلُ: مصدرُ كِلْتُ الطعامَ كَيْلًا ومَكالًا ومَكيلًا أيضًا[5]، والمعنى المِحوريُّ الّذي يدور عليه الكيلُ هو: ضبطُ الشَّيْءِ ما فيه؛ أيْ: إمساكُه ما فيه لا يُخْرِجُه، كما يُمسكُ الزَّنْدُ الكَابِي نارَهُ لا يُخرجُها، وكما يَضْبِطُ المِكيالُ الحَبَّ؛ أيْ: يُمْسِكُهُ في جَوْفِه حتَّى يستوفيَ قدْرًا مُعيّنًا[6]، "قال اللّيث: الكَيْلُ: كَيْل البُرّ ونحوِه، تقول: كالَ يَكيلُ كَيْلًا، وبُرٌّ مَكيلٌ، ويجوزُ في القياس: مَكْيُولٌ، ولغةُ بني أسد: مَكُول، وهي لغةٌ رديئةٌ، ولغةٌ أردأ: مُكَال"[7]، وفي المثل: (أَحَشَفًا وسوءَ كَيْلةٍ)؛ أيْ: أتجمعُ أن تُعطِيَني حشفًا، وأن تُسيء لي الكيلَ[8].

5) ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ مفردُه: (مُنْزِل)، جَذْرُه (نزل)، وهو أصلٌ يدلُّ على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه[9] وانحطاطٍ من عُلُوٍّ، يُقال: نَزَلَ عن دابَّته، ونَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه، وأَنْزَلَهُ غيرُهُ. قال تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: 29]، ونَزَلَ بكذا، وأَنْزَلَهُ بمعنًى؛ أيْ: جعله في منزلٍ ومنزلةٍ[10]، فيكونُ معنى: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؛ أيْ: وأنا خيرُ مَنْ أَنْزَلَ ضيفًا على نفسهِ، في هذا البَلَدِ[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) الخليل، العين: (وفى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) الخليل، العين: (كيل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (كيل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيل).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (كيل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(10) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(11) القيسيّ، الهداية: 5/3592.

6) ﴿تَقْرَبُونِ﴾: فعلٌ مضارعٌ جَذرُه (قرب)، وهو أصلٌ يدلُّ على خلافِ البُعْدِ[1]، والاقترابُ: الدُّنوُّ، والتَقَرُّبُ: التَّدَنّي والتّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ[2]، ومعنَى ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: لا تَدْخُلونَ بِلادي فَضْلًا عن أنْ أُحْسِنَ إليكم.. فلا أُنْزِلُكُمْ عِنْدي منزلًا، كما أنزلْتُكمْ هذه المرَّة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَنْفيذُ خطَّةِ يوسُفَ لرؤيةِ أخيه وضَمِّه إليهِ بذكاءٍ وحَصافةٍ

قَدِمَ إخوةُ يوسُفَ إلى أرضِ مِصْرَ ببضاعةٍ لهم، فدخلوا عليه فَعَرَفَ أنَّهم إخوتُه، ولم يعرفوا أنَّه أخوهم؛ لِطول المُدَّةِ وتَغَيُّرِ هَيْئَتِه؛ لأنَّه كان صَبيًّا حين رَمَوهُ في البئر. ولمّا أعطاهم ما طلبوه منَ الميرَة والزّاد، قالَ بعد أن أخبروه أنَّ لهم أخًا من أبيهم تركوه عند أبيه: جيئوني بأخيكم من أبيكم، أزِدْكُم حِمْلَ بعيرٍ، ألا ترونَ أنّي أُكْمِلُ الكيلَ وأُتِمُّه ولا أُنْقِصُه، وأنا خيرُ مَن يَنزلُ الضَّيْفُ عِنْدَه؟ فإنْ لم تَجيئوني به تَبَيَّنَ كَذِبُكم في دعواكم أنَّ لكم أخًا من أبيكم، فلن أكيلَ لكم طعامًا، ولا تدخلوا بلدي أو تَقْرَبوها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ على الاسْتِئْنافِ أوِ العطْفِ في السّياقِ:

تَصويرُ المَشْهَدِ المَسُوقِ ببيانٍ مُفصِحٍ عنِ المُرادِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾، هي واو الاستئنافِ[5]، والجملةُ بعدها مُستأنَفةٌ لحكايةِ مشهدٍ جديدٍ من مشاهد قصّةِ يوسفَ ﷺ، وهو مشهدُ التقائه بإخوته، بعد أن مرّت سُنونٌ على فراقِهم، منذ يومِ إلقائه في الجُبِّ، ويمكنُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً، من باب عطْفِ القصّةِ على القصّةِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(2) الخليل، العين: (قرب).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/45.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/154، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/255، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(5) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/15، وصافي، الجدول: 13/15.

نُكتةُ التَّعريفِ بالإخوةِ بإضافتِهم إلى اسمِ يوسفَ:

مَنِ اصْطَفاه الله رفعَ قَدْرَه وأعلَى ذِكْرَه

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ هي إضافةُ تعريفٍ بهم، بعد أن بعُد العهدُ بذِكْرِهم فيما مضى من آيات السّورة، فعرّف بهم من خلال نسبتِهم إلى أخيهم يوسفَ تشريفًا له، وتعريضًا بهم.

نُكتةُ الإظْهارِ بعدَ الإضْمارِ:

اسْتِحضارُ قصَّتِه عليه السلام الـمُـثيرةِ مع إخوتِه بأحسَنِ البيانِ وأَوْفاه

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ من أسرار إظْهارِ اسمِه عليه السلام بإضافة إخوتِه إليه أن يَستحضرَ السّامعُ ما مرَّ به عليه السلام مع إخوتِه، إذْ ألقَوه في الجُبّ ليتخلّصوا منه، وقد أنجاه الله منَ الهلاك الّذي أرادوه له. وأيضًا قد نلمحُ في هذا الإظهار إبرازًا لمِنَّة الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، بأن يرى إخوتَه بعد مرور السّنين، وهم في موضعِ الإجلالِ له والالتجاءِ إليه، بعد أن كانوا بالأمس يَزْدَرونه، ويَعملون على الخلاصِ منه، وقد فعلوا.

دَلالةُ الفاءِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ:

قد يَجمعُ الله الشَّتيتَيْن بعدَ يأْسٍ منَ التّلاقي

في قوله تعالى: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ الفاء عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةَ على الجملة السّابقةِ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾، وهي تدلُّ على سرعة دخولِهم عليه بعد مجيئِهم، ولعلّ هذا كان بإيعازٍ منه عليه السلام، وقد مضت سنونٌ وهو يترقّبُ هذا اليومَ، وها قد جاء.

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾:

لقاءُ يوسفَ بعد انقطاعٍ دَالٌّ على قُـدرةِ الـلـه على جمْعِ الشَّتاتِ

الفاء عاطفةٌ ودالّةٌ على أنّه عرفَهم بمجرّدِ النّظرِ إليهم، فلم يستغرقِ الأمرُ معه وقتًا ولا جهدًا، "لأنّه كان مُرتَقِبًا لحضورِهم، لعلْمِه بجَدْبِ بلادِهم، وعقدِ همّتَه بهم مع كونِه يعرفُ هيئاتِهم في لباسهم وغيرِه، ولم يتغيّر عليه كثيرٌ من حالِهم؛ لمُفارقتِه إيّاهم رجالًا"[1]، ثمّ "لأنّهم رأوه على زيِّ الملوك، وكان قد تقرَّر في أنفسهم هلاكُ يوسف، وقيل: لأنَّهم رأوه من وراء سِترٍ"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/145.
(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 551.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

واوُ الحال على معنى: فعرفَهم والحالُ أنّهم مُنكرون له، وذلك "لِبُعْدِ العهد وتغيُّر سِنِّه، ولم يقعْ لهم بسببِ مُلْكِه ولسانِه القبْطِيِّ ظَنٌّ عليه، ورُوِيَ في بعض القصص، أنّه لمّا عرفهم أراد أنْ يُخبروه بجميعِ أمرِهم، فباحَثَهُمْ بأنْ قال لهم بتَرْجُمَانٍ: (أُظنُّكُمْ جواسِيسَ)، فاحتاجوا حينئذٍ إلى التّعريفِ بأنفسِهم، فقالوا: نَحْنُ أبناءُ رجُلٍ صِدِّيقٍ، وكنا اثْنَيْ عَشَرَ، ذهب منَّا واحدٌ في البَرِّيَّة، وبقي أصغرُنا عنْدَ أبينا، وجئْنَا نَحْن للميرَة"[1].

إذا أرادَ الله أمرًا هيّأَ له الأسبابَ فتيسَّرَ بدون جُهدٍ ولا غِلابٍ

نُكتةُ العُدولِ منَ الجملةِ الفعليّةِ إلى الاسميّةِ:

عَدَلَ عنِ الجملة الفعليّة ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ في حقّ يوسفَ ﷺ، إلى الجملةِ الاسميّةِ ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، المُعبَّرِ بها في حقّهم، ولم يقل: (وأنكروه) للدّلالةِ على أنّ عدمَ معرفتِهم به أمرٌ ثابتٌ مُتمكّنٌ منهم عريقٌ فيهم، سواءٌ في مَحضرِهم أو مَغيبِهم، لعدم خُطورِه ببالِهم لطول العهدِ، مع ما تغيّرَ عليهم من هيئته بالسِّن، وانضافَ إليه منَ الحشمِ والخدمِ واللّباسِ، وهيئة البلدِ وهيبةِ المُلك وعزِّ السّلطان، وغيرِ ذلك ممّا يُنكَرُ معه المعروفُ، ويُستوحَشُ لأجله منَ المألوفِ، وَفْقَ ما قال تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15][2].

الدّلالةُ على أنّ عدمَ مَعرفتِهم به أمرٌ ثابتٌ مُلازمٌ لهم في مَحضرِهم و مَغيبِهم

وأمّا الإخبارُ عن معرفته ﷺ إيّاهم بالجملةِ الفعليّةِ المفيدةِ للتّجدُّدِ؛ فللدّلالةِ على أنّ معرفتَه إيّاهم حصلت بمجرّدِ حدوثِ رؤيتِه إيّاهم، دون توسُّم وتأمُّلٍ[3].

دَلالةُ الموقعِ النّحويِّ: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ جملةٌ حاليّةٌ، فقد سبقتْها واوُ الحال. وصاحبُ الحال هو ضميرُ المفعولِ في ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾؛ أيْ:

أسبابُ عدمِ تعرّفِهم على يوسفَ موضوعيّةٌ وَجيهةٌ

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان، ص: 551.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/146، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.

الهاء[1]؛ أيْ: والحالُ أنّهم مُنكِرون له لم يعرفوه، وقد عبّرتِ الجملةُ الحاليّةُ عن تناقضِ الحالِ بين طرفٍ عرفَ مَن يُقابلُه، وطرفٍ لم يستطع معرفتَه لأسباب موضوعيّةٍ، أهمُّها طولُ العهد، وتغيّرُ المظهر، واليقينُ بهلاك يوسفَ منذ وَضْعِه في الجُبّ.

دَلالةُ اللّامِ على التّقويةِ في شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

للحروفِ دورٌ مُهمٌّ في تجليةِ المعنى في السّياقِ وضَبْطِه

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾، هي لامُ التّقويةِ، وجيءَ بها لزيادة تقويةِ جهلِهم بمعرفتِه، ولذا لم يَقُلْ: (وهم مُنكرونَه)[2]، وحالُه في سُدّة المُلك يُوحي بأنّه ليس هو، "فكيف وقد مضت سنونٌ؟ وكيف وليس في تصوُّر إخوتِه ولا في خيالِهم أن يكونَ يوسفُ في مصرَ، أو أن يكونَ له هذا السّلطانُ الّذي كان عهدُ النّاس به يومذاك، أنّه ميراثٌ ينتقلُ من الآباءِ إلى الأبناء"[3].

غرَضُ ذِكْرِ شِبْه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ وتقديمِها على الخبر:

صَرَفَ اللهُ الإخوةَ عن معرفتِه ليتأجّلَ ذلك إلى وقْتٍ قد قضاه

في تقديم المجرور بلام التّقوية في ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ اهتمامٌ بتعلُّقِ نكرتِهم إيّاه؛ للتّنبيه على أنّ ذلك؛ أيْ: إنكارَهم له من صُنع اللّه تعالى، وإلّا فإنّ شمائلَ يوسفَ عليه السلام ليست ممّا شأنُه أن يُجهلَ ويُنسى[4].

نُكتةُ التّعبيرِ عن جهلِهم به بالإنكار:

الإنكارُ يكونُ عن معرفةٍ، والجهلُ يعني عدمَ حُصولِها أصْلًا

عبَّرَ عن جهْلِهم به بالإنكار، فقال: ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (جاهلون)، لأنّ الإنكارَ إنّما يكونُ عن معرفةٍ سابقةٍ أو حاليّةٍ، فلا مُنكَرَ دونَ اسْتِصْطحاب المعروفِ، وهم في الأصل كانوا يعرفونَه؛ لأنّه أخوهم الذّي سبقَ أن تخلّصوا منه بإلقائه في الجُبّ، لكنْ شاء اللّه تعالى - ولحكمةٍ قضاها - أن تتبدّلَ هذه المعرفةُ حينًا، إلى

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/15، وصافي، الجدول: 13/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/10.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.

عكْسِها، وهو الإنكارُ، وأمّا الجهلُ فهو نقيضُ العلم، ولا يتأتّى التّعبيرُ به إلّا في حالة عدمِ وقوعِ المعرفةِ أصلًا.

بَلاغةُ العطْفِ بالواوِ في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، وفيه جملةُ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾، وفيها الدّلالةُ على أنّه لم يجهّزْهم بجَهازهم عقبَ معرفتِه لهم مباشرةً، وإلّا عبَّرَ بالفاء، بل كانت هنالك فرصةٌ للحوارِ الّذي دار بينه ﷺ وبينهم، وأيضًا لإكرامِهم وإظهارِ الحفاوةِ بهم.

إفادةُ السّياقِ ترتيبَ الأحداثِ وَفْقَ المَشاهدِ المتُواليةِ

دَلالةُ (لمّا) على الظّرفِ والشّرطِ، وفائدةُ تَكرارِها:

عبَّرَ بـ (لمّا) لدلالتِها على الظّرفيّةِ؛ أيْ: حين جاء بأسُنا. كما أنّها شرطيّةٌ أيضًا، لكنّها لا تجزمُ، وكرّرَها بحسبِ تعدُّد مواضعِ الظّروف وما تمَّ فيها من أعمالٍ.

ارْتباطُ التّجهيزِ بظَرْفِ وقوعِه جزءٌ منَ المشهدِ المُصاحِبِ

المجازُ العقليُّ في العبارةِ، وأثرُه في المعنى:

في إسنادِ التّجهيزِ إلى يوسفَ ﷺ مجازٌ عقليٌّ، والعلاقةُ هي السّببيّةُ، لكونِه الآمرَ بتجهيزِ جَهازِهم.

إسنادُ التّجهيزِ إلى ضميرِ يوسفَ ﷺ إشارةٌ إلى مباشَرَةِ ذلك بنفسِه

معنَى الباءِ في: ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾:

الباءُ في ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ هي باءُ التّعديةِ، والمعنى: "أي: حين أعطاهمُ الكيلَ الّذي يُكالُ لهم ببضاعتِهم الّتي معهم"[1]، قال المراغيُّ: "؛ أيْ: ولمّا أَوْقَرَ ركائبَهم بما جاؤوا لأجلِه منَ الميرَة والطّعام، وجهّزهم بما سِوى ذلك منَ الزّاد، وبما يحتاجُ إليه المسافرون عادةً، على قدر طاقتِهم وبيئتِهم ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، هو شقيقُه بِنيامين"[2].

استِخدامُ جَهازِهم في استِذراجِهم لمُرادِه من دهاءِ المعاملةِ

نُكتةُ إضافةِ الجهازِ إلى ضَمير (هم): ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾:

الجَهازُ: هو فاخرُ المتاع الّذي يُحملُ من بلدٍ إلى بلدٍ[3]، والمُرادُ به

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/10.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/13.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/146.

هنا: الميرَة الّتي جاءوا يطلبونَها كما طلبها غيرُهم، بسبب القحْطِ الّذي أصاب البلادَ. وأضيفَ إلى ضميرِهم ليُفيد الاختصاصَ، فكان من لوازم إكرامِهم تخصيصُهم بجَهازٍ يُرضي حاجتَهم، كما عبَّر عنه قولُه بعدُ: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾، وأيضًا ليكونَ حافزًا لهم على التّمسّك به، والحرْصِ على العودة بأخيهم حين يُطلبُ منهم هذا.

الإضافةُ للاختصاصِ مُفيدةٌ في التّعبيرِ عنِ المطلوبِ

دَلالةُ الأمْرِ في فعلِ الأمرِ ﴿ٱئۡتُونِي﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ دالٌّ على النّدبِ والحثِّ على إحضاره، وهذا يقتضي وقوعَ حديثٍ منهم، عن أنّ لهم أخًا من أبيهم، لم يحضرْ معهم وإلّا لكان إنباءُ يوسفَ ﷺ لهم بهذا يُشعرُهم بأنّه يكلّمُهم عارفًا بهم وهو لا يريدُ أن يكشفَ ذلك لهم[1].

الأمْرُ هنا مَسبوقٌ بحِوارٍ يُفهمُ منَ المقامِ في السّياقِ الوارِدِ

معنَى الباءِ، ودَلالةُ تنكيرِ: ﴿بِأَخٖ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَخٖ﴾ هي باءُ المصاحبة، ونكَّرَ لفظَ ﴿بِأَخٖ﴾ مبالغةً في إخفاء أنّه يعرفُه، وأنّه فقط طلبَه لمّا عرفَ منهم أنّ لهم أخًا من أبيهم. وأيضًا لأنّه ﷺ تذكّر حالَهم معه ومع أخيه، وأنّهم لم يكونوا يعاملونَهما معاملةَ الأخ بالمحبّةِ والتّرابطِ الّذي كان يجمعُهم كإخوةٍ أشقّاءَ، فلا شكّ أنّهم كانوا مترابطين ترابُطَ العصبةِ لكونِهم أشقّاءَ، على عكس موقفِهم من يوسفَ ﷺ وأخيه، كما يُنبئ عنه قولُهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]، فهذا مُسَوِّغٌ آخرُ للتّعبيرِ بالتّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾.

التّنكيرُ للمبالغةِ في إخفاءِ مَعرفتِه إيّاه

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لَّكُم﴾:

اللّامُ في ﴿لَّكُم﴾ هي لامُ الاختصاصِ، والغرَضُ منها التّنصيصُ على أنّ المرادَ ﴿بِأَخٖ لَّكُم﴾ لا لغيركم ﴿مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾، لا

التّدقيقُ في الألفاظِ الدّالّةِ على جهةِ الأخوّةِ، من دقيقِ البيانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.

من أُمِّكم؛ أيْ: ليس بشقيقٍ[1]، "أي: أُخُوّتُه من جهة أبيكم، وهذا من مفهوم الاقتصارِ الدّالِّ على عدم إرادةِ غيره؛ أيْ: من أبيكم وليس من أُمِّكم؛ أيْ: ليس بشقيقٍ"[2].

غرَضُ ذِكْرِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَّكُم﴾ وتقديمِها:

حَـصْـرُ الأُخـوّة لأبٍ في بِنيامين أخيهم الأصْغَرِ

ذكرُ شِبْه الجملةِ ﴿لَّكُم﴾ وتقديمُها، لإفادة القصرِ، فالمطلوبُ محصورٌ في هذه الصّفة، كونُه أخًا لهم من أبيهم. ومعلوم أنّه "يُطلَقُ على الإخوةِ لأب بنو الأعيانِ، والإخوةِ لأمّ بنو العِلّات، ويُقال للإخوة من أمٍّ واحدةٍ وآباء متفرّقين: بنو الأخياف، وللإخوة من أب وأمّ أشقّاءُ، وقد نُكّرَ الأخُ مبالغةً في عدم معرفتِه، لئلّا يتّهموه بمعرفتِهم، أو ينتبهوا لها"[3].

نُكتةُ جملةِ: ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ معنًى وإعرابًا:

إيثارُ قولِه (بِأَخٍ لَكُمْ من أَبِيكُمْ)، ولـــم يـقـل (بأخيكم)

﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ للبيانِ، وقولُه تعالى: ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، جارٌّ ومجرور متعلّقان بمحذوفٍ صفةٍ ثانيةٍ لـ (أخ) والصّفةُ الأولى هي ﴿لَّكُم﴾[4]، أو هو في محلّ نصْبٍ حالٌ من الكاف في ﴿لَّكُم﴾[5].

وإنّما نصَّ على قوله: ﴿بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، ولم يقل (بأخيكم)، لما مضى ذِكْرُه منَ المبالغة في إخفاء أنّه يعرفُه، أو لأنّه استحضرَ معاملتَهم القديمةَ له ولأخيه، وكانت تتّسمُ بالغيرة والجفاءَ.

ولو أنّه أضافه فقال: (ائتوني بأخيكم)، لاقتضى معرفتَه، ومن هنا قالوا في (أرسل غلامًا لك): الغلامُ غيرُ معروف. وفي (أرسل غلامك): الغلامُ معروفٌ، وبينَك وبين مخاطَبك عهدٌ فيه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(3) العاني، بيان المعاني: 3/230.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/15، والدّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/94.
(5) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/604.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/10.

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾:

كمالُ الاتّصالِ بين الجُملتَيْن من فصيحِ البيانِ

سببُ فصْلِ هذه الجملة هو قوّةُ اتّصالِها بما قبلَها، فهي كالعلّة لقوله: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾؛ أيْ: لأنّني أُوفي الكيلَ، وأريدُ أن أصرفَ لكم كيلَ أخيكم أيضًا، حتّى يكفِيَكمُ الطّعامُ.

ولعلّه قال ذلك تعقيبًا على طلبٍ منهم، بأن يمنحَهم كيلًا زائدًا لأخٍ لهم من أبيهم، لم يأتِ معهم، "فطلب منهم يوسفُ أن يُحضِروا أخاهم، كي يزيدَ لهم كيلًا إضافيًّا؛ لأنّه لا يحبُّ أن يُعطيَ أحدًا دون دليلٍ واضحٍ؛ التزامًا منه بالعدلِ"[1]. ويمكنُ أن يكونَ سببُ الفصل من قَبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ في نفوسهم: لماذا نأتي به؟

نُكتةُ العُدولِ عن صيغةِ الماضي:

مزجُ التّرغيبِ بالتّرهيبِ هو مَناطُ هذا السّياقِ الاستِفهاميِّ

قولُه تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾، وقد عبّرَ فيه بصيغة الاستقبالِ ﴿أَلَا تَرَوْنَ﴾، مع كونِه قد قال هذا القولَ بعد تجهيزِه لهم؛ للدّلالةِ على أنَّ إيفاءه هذا عادةٌ مستمرّةٌ له معهم، كلّما أتَوه[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ، ونوعُه، وغرَضُه:

دَلالةُ الهمْزةِ على الاستفهامِ التّقريريِّ وغرَضِه

الهمزةُ للاستفهامِ التّقريريِّ؛ لدخول الهمزةِ على النّفي ونفيُ النّفي إثباتٌ[3] وغرضُه تقريرُهم، بأنّه ﷺ يُوفي الكيلَ، ترغيبًا لهم بأن يأتوا بأخيهم ليكسِبوا كيْلَه.

معنَى (لا) في السّياقِ:

بيانُ التّلاؤُمِ بين الأسلوبِ المختارِ، وما يَقْتضيه المشهدُ من نظرٍ واعتبارٍ

(لا) في ﴿أَلَا﴾ نافيةٌ، وقد دخلت عليها همزةُ الاستفهام فصارت ﴿أَلَا﴾، ويجعلُها بعضُهم أداةَ عرضٍ[4]، وفيه يلفتُ نظرَهم إلى ما شاهدوه بأمّ أعينِهم، من عَمارٍ وازدهار وهيبةٍ ليوسفَ ﷺ، ممّا يكونُ إغراءً لهم بالعودة مع أخيهم المطلوبِ، إلى مصرَ كَرّةً أخرى.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7007.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/385.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/133.
(4) محمود صافي، الجدول: 13/16.

معنَى الرّؤيةِ، ومَفعولِها في السّياقِ:

الرؤيةُ هنا هي البصريّةُ والحاليّةُ، فقد شاهدوا وعايَشوا ما أخبرَهم عنه من إيفاءِ الكيْلِ، وإكرامِ الضّيفان، وما يُحتفى به منَ التّرحاب والعملِ على راحتهم.

الـدّعـوةُ إلى الرّؤيةِ للإيقانِ بما هو حاصلٌ في واقعِ مِصرَ المتميّزِ

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾:

تتمثّلُ هذه المؤكِّداتُ في: (أنَّ) الّتي هي حرفُ توكيدٍ، وضمير التّكلّم المضافِ إلى (أنَّ)، بمعنى أنّه هو بنفسِه مَن يقوم بعمليّةِ الكيْلِ، أو أنّه يكونُ تحت رقابتِه المباشرةِ ليضمنَ الإيفاءَ.

تعدّدُ المُؤكِّداتِ يَبُثُّ الاطْمِئْنانَ في القلوبِ

وأيضًا فإنّ التّعبير بـ ﴿أُوفِي﴾ مضارعًا يفيد التأكيد من حيث الدّلالةِ على تكرّرِ هذا وتجدّدِه في كلّ عمليّةِ كيْلٍ، وفيه فاعلٌ محذوفٌ يعودُ على يوسفَ عليه السلام.

وأيضًا التّعبيرُ بالمصدرِ ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾، يُفيد الثبوتية والتوكيد والاستقرار.

وكذلك الاختصاصُ المُستفادُ من تقدُّمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنِّيٓ﴾، على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿أُوفِي﴾.

وغرضُ هذه المُؤكِّداتِ مجتمعةً بثُّ الاطْمِئنان في قلوبِهم إلى مسألة الاسْتيفاء، وترغيبُهم في العودة مجدّدًا بأخيهم، ليَسْتَوفوا كيْلَهم ويزيدوا كيْلَه.

فائدةُ تقدُّمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنِّيٓ﴾:

يـوسـفُ نـبـيٌّ صِـدّيـقٌ وهـو أحـرَى بـالـوفاءِ وحُسْنِ المُعاملةِ

الفائدةُ من تقدُّمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنِّيٓ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿أُوفِي﴾، في هذه الجملةِ المُصدَّرةِ بالنّفي ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي﴾، هي الدّلالةُ على الاختصاصِ؛ أيْ: أنا من يفعلُ ذلك لكم لا غيري.

بَلاغةُ المجازِ الإسناديِّ (العقلّي) في ﴿أَنِّيٓ أُوفِي﴾:

في إسنادِ إيفاءِ الكيلِ إلى نفسِه مجازٌ عقليٌّ علاقتُه السّببيّةُ؛ لأنّ

إسنادُ يوسفَ إيفاءَ الكيلِ إلى نفسِه مُنسجمٌ مع نُبوّتِه وعَدْلِه

الّذين يقومون بعمليّة الكيْلِ واستيفائِه هم عُمّالُه، لكنّه أسندَه إلى نفسه؛ لأنّه الآمرُ به، والمُراقبُ له، والمُشرفُ بنفسه عليه.

معنَى (أل) في: ﴿ٱلْكَيْلَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ هي الجنسيّةُ، وهذا أبلغُ في الدّلالةِ على كرمِ عطائِه، وكان يُشرفُ بنفسه على العُمّال والخَزَنةِ ليَضمنَ العدالةَ وتَساوي النّاسِ في الاستفادةِ من استيفاء الكيْلِ، قال القُرطبيُّ: "وذاع أمرُ يوسفَ ﷺ في الآفاق للِينِه وقُربِه، ورحمتِه ورأفتِه، وعدلِه وسيرتِه، وكان يوسفُ ﷺ حين نزلتِ الشّدّةُ بالنّاس، يجلسُ عند البيعِ بنفسه، فيُعْطيهم منَ الطّعام على عدد رؤوسِهم، لكلِّ رأسٍ وسقًا"[1].

إيفاءُ يوسفَ للكيلِ يَستَوفي صِفاتِ النّبيِّ الحاكمِ

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ مادّة وبناءً:

الكيْلُ هنا المُرادُ به المصدرُ[2]، وأصْلُ الكَيْلِ: ضَبْطُ الشّيءِ وإمساكُه[3]، والتّعبيرُ به هنا من باب الدّلالةِ على مُطْلقِ العدلِ، وإن دخلَ فيه كيلُ الميرَة ونحوِها دخولًا أوليًّا، فلا شكّ أنّه من فروع العدلِ ومَصاديقِه.

التّعبيرُ بالكيلِ يدلُّ على مُطلَقِ العدْلِ وعُمومِه

سِرُّ الاقتصارِ في الكيْلِ على الإيفاءِ في السّياقِ:

لم يَزِدْ في جانب الكيْلِ على ذكْرِ الإيفاء، "لأنّ معاملتَه ﷺ معهم في ذلك كمُعاملتِه مع غيرهم في مُراعاةِ مواجبِ العدل"[4] فاقتصرَ عليه، إذ هو ميزانٌ واحدٌ يتعاملُ به مع جميعِ المُتارين بلا تَفرقةٍ.

للكَيْلِ ميزانٌ واحدٌ أساسُه العَدْلُ

دَلالةُ العطْفِ في: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾:

دلَّ العطْفُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، على أنّه ﷺ، كان لا يكتفي بإيفاءِ الكيْلِ، وإنّما كان يُكرمُ أيضًا ضيافةَ المُتارين - وكانوا كُثُرًا - كذلك، وهذه أخلاقُ الأنبياءِ والكرامِ.

أخلاقُ الأنبياءِ الكرامِ قُدوةٌ وكَرمٌ والتزامٌ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/288.

نُكتةُ العُدولِ منَ الجملة الفعليّةِ إلى الاسميّةِ:

عدلَ منَ الجملةِ الفعليّةِ في قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾، إلى الاسميّة في ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ لأنّ إيفاءَ الكيلِ مُرتبطٌ بحدثٍ، وهو أنّه كلّما اكتالَ للنّاس أوفاهمُ الكيلَ، فناسبَ أن يُعبّرَ بالمضارع الدّالِّ على التّجدّدِ والتّكرير.

إكـرامُ الضّيفِ مـنَ الصِّـفاتِ المتميّزةِ بالرّسوخِ والـثّـبـاتِ عند الشّعوبِ

أمّا الإكرامُ والإحسانُ؛ فهو منَ الصّفات الّتي تكونُ راسخةً ثابتةً، فيمَن يوصَفُ بالكرمِ وحسنِ معاملةِ الضّيفان، ولذا عدلَ إلى الجملةِ الاسميّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

معنَى ﴿خَيۡرُ﴾ ودلالتُها على التّفْضيلِ:

لـفـظُ (خَـيـر) للدّلالةِ على ما يُقابلُ الشّرَّ

﴿خَيۡرُ﴾ هو ما يُقابلُ الشّرَّ، وأصلُه العطفُ والميلُ[1] على معنَى أنّ مَن مال إليه، فقد أبى أن يميلَ إلى الشّرّ. وهو يُستعملُ اسْمَ تفضيلٍ على تقديرِ (أفعل منه)[2]، كما في ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، وأصلُه: أخْيَر، وحُذفت همزتُه تخفيفًا لكثرة الاستعمالِ.[3] ومثلُه أيضًا، كلمةُ (شرّ).

دَلالةُ (أل) الجنسيّةُ في: ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

مـا بـيـن كـرمِ الـنُّـبـوّةِ وسائرِ الـنّـاسِ بـونٌ شاسعٌ، وفرقٌ واسعٌ

لن يقولَ يوسفُ عليه السلام هذا إلّا وهو واثقٌ بأنّهم قد جرَّبوا غيرَه منَ المُنزلين في بلادهم، وفي غيرها منَ البلاد الّتي يَمرّون عليها في رحلاتِهم أو إقامتِهم فيها مدّةً منَ الزّمان.

نُكتةُ الجمْعِ في: ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

الـكـرمَ طبعٌ أصيلٌ وهـو في الأنبياءِ تميّزٌ وتفضيلٌ

جمعَ ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، لأنّ المُنزِلَ هو المُضيفُ، وطبيعيٌّ أن يكونَ المُضيفون جمْعًا، فالإضافةُ والإنزالُ ليست محصورةً فيه عليه السلام ولا مقصورةً عليه، بل هو خُلُقٌ يشيعُ بين الكرامِ في كلِّ المجتمعاتِ، لكنَّ المقصودَ أنّه عليه السلام خيرُهم وأحسَنُهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(2) الرّاغب، المفردات: (خير).
(3) ابن مالك، شرح الكافية: 2/1121، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 8/251.

بَلاغةُ الكنايةِ:

غـرَضُ يـوسفَ الـتّرغـيـبُ والاستِـمـالـةُ، ولـيـس الـثّـنـاءَ على النّفسِ

لم يكنِ القصدُ في قوله: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ الثّناءَ على نفسه، بلِ التّرغيبَ والاستمالةَ، وكان قد بالغَ في إكرامِهم، فهذه الجملةُ كنايةٌ عنِ الوعدِ، بأن يُوفيَ لهمُ الكيلَ، ويُكرمَ ضيافتَهم، إنْ أتَوا بأخيهم[1]، ولم يكنِ القصدُ من هذه العبارة أبدًا الثّناءَ على النّفس، فالأنبياءُ أرفعُ وأنزهُ عن أن يفعلوا هذا، بل قصْدُه ﷺ أن يُذَكِّرَهم بما يُشاهدون من حالِه وحُسنِ تعاملِه، ليَستميلَهم بهذا ويُرغّبَهم في العودة، ويُطَمئنَّ قلوبَهم بأنّهم سيكونون رابحين حِسًّا ومعنًى وهُمّ في رحابِه.

وهذا النّوعُ منَ الكنايات، ممّا يُلجَأُ فيه إلى "الانتقالِ منَ اللّازم وهو الثّناءُ، إلى الملزوم وهو الميلُ النّفسيُّ والتّرغيبُ"[2]. ويُفهمُ من هذه العبارة ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، أنّه عاملَهم معاملةً فيها مزيدٌ منَ الإكرام على سواهم، وأنّه خصَّهم بما لم يخُصَّ به غيرَهم في الضّيافة، بخلافِ الكيلِ فقد كانوا هم وغيرُهم في ذلك سواءً لما اقتضاه من واجب تحقيقِ العدل، "وأمّا الضّيافةُ، فليس للنّاس فيها حقٌّ، فخصَّهم في ذلك بما شاء"[3].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِ بِهِۦ﴾:

العطْفُ اشْتراكٌ بين الجُملِ في الحُكمِ وتكاملٌ في الدّلالةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةُ على ما قبلَها. وهذه الآية "إيعادٌ لهم على عدم الإتيانِ به، والمُرادُ: لا كيْلَ لكم في المرّة الأخرى. فضلًا عن إيفائه، ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾؛ أيْ: لا تقربوني بدخول بلادي، فضلًا عنِ الإحسان في الإنزال والضّيافةِ، وهو إمّا نهيٌ أو نفيٌ معطوفٌ على التّقديرَيْن على الجزاء"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/133.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/288.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/11.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ):

للتَّعبيرِ بالأداةِ المُعيَّنةِ مُرجِّحاتٌ تـدعـمُ صـوابَ اخْتِيارِها دونَ سِواها

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِ بِهِۦ﴾، وفيه آثرَ التّعبيرَ بـ (إنْ)، دون (إذا)، لما تُفيدُه (إنْ) منَ الشّكّ والتّقليلِ، فعبّرَ بهذا الحرفِ الدّالِّ على التّشكيك، ونُدرةِ الوقوع على رغبتِه بعدم حدوثِ هذا، فقد كان الرّاجحُ عنده، والغالبُ على ظنّه أنّهم سيعودون؛ لحاجتِهم الشّديدةِ إلى الميرَة من جهة، ولأنّه أطمَعَهم في كرمِه من جهةٍ أخرى، وأنّه حذّرَهم من دخول البلادِ بدون أخيهم لأبيهم من جهةٍ ثالثةٍ.

فكلُّ هذه الأسبابِ مُجتمعةً، رجَّحتِ التّعبيرَ بـ (إنْ)، وهي مُرجّحاتٌ ينطقُ بها النّصُّ الكريمُ، وأمّا ما هو زائدٌ على هذا من قول بعضِهم: إنّه كان قد أخذ أحدَهم رهينةً عنده ليضمنَ عودتَهم؛ فهو قولٌ لا يحتملُه النّصُّ الكريمُ، ولا يحتملُه خُلُقه كنبيٍّ، ولم يكن هنالك من داعٍ إليه في ظلِّ أنّه لم يكشِفْ لهم عن حاله، وأنّه أخوهم يوسفُ، بل إنَّ تعابيرَه في حوارِه معهم، كما يدلُّ السّياقُ، كلُّها في حيِّز التّخَفّي عنهم، وعدمِ البَوْح بحقيقةِ أمره.

غرَضُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ في السّياق:

رَبْطُ دُخولِ مِصْرَ بالإتيانِ بأخيهم حافِزٌ للجدِّ في إقناعِ أبيهم

عبَّرَ بالجملةِ الشّرطيّةِ للدّلالةِ على جدّيّة الأمرِ، وتأكيدِ لزومِ تحقيقِ ما دلّ عليه فعْلُ الشّرط، فلا قدومَ لهم إلى مصرَ، إلّا بتحقّقِ هذا الشّرط، وهو الإتيانُ بأخيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَأْتُونِ﴾:

بيانُ أنّ مُستقبلَ قوّتِهم مَرهونٌ بتحقيقِ ما طُلِبَ منهم

عبَّرَ بالمضارع في ﴿تَأْتُونِ﴾ لما فيه منَ الدّلالة على الاستقبالِ، فهذا الإيعادُ مُوجَّهٌ إلى المرّة القادمةِ الّتي سيأتون فيها، وهذا الاشتراطُ سيكونُ حائلًا بينهم وبين الميرَة، إذ لن يُتاحَ لهمُ الدّخولُ إلى مصرَ الّتي كانت المصدرَ الوحيدَ لشعوب المنطقةِ كلِّها، وذلك لعمومِ الجفافِ وغَلَبة السّبْعِ الشّدادِ على كلّ البلادِ.

دَلالةُ حرْفِ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

اشْـتِراطُ الإتيانِ بِبِنيامين ذاتِـه لـلـوفـاءِ لهـم بالوعْدِ المقطوعِ

الباءُ هنا للمُصاحبةِ، ويمكنُ أن تكونَ للتّعديةِ، "ولكلَيْهما أثرٌ في المعنى، والسّياقُ واردٌ في إطار التّرهيبِ والتّخويفِ، وذلك لعلْمِه باضطرارِهم إلى الإتيانِ إليه، وأنّ ذلك يحمِلُهم على الإتيانِ به"[1].

معنَى الفاءِ في: ﴿فَلَا﴾:

مَنْعُ الاقترابِ من مـصْـرَ وغـلّاتِـها مـرهـونٌ بـعـدَمِ اسْـتِـجـلابِ أخيهم إليها

الفاءُ رابطةٌ لجواب الشّرطِ الّتي تُسمَّى (فاء الجزاء)، وفي السّياقِ أنّه "قال لهم بعد أنْ جهّزَهم الجهازَ الكاملَ: أحضِروا أخاكم الصّغيرَ في المرّة القادمةِ، ولا تخافوا شيئًا، وإلّا فلا كيل لكم عندي ولا تأتوا إليَّ"[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(لا) النّافيةِ للجنْسِ:

المـؤمـنـون عـنـدَ شُـروطِـهـم ومَـن نَكثَ فإنّما يَنكثُ على نفسِه

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِ بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، وفيه عبّرَ بـ (لا) النّافيةِ للجنس، للدّلالةِ على العموم؛ أيْ: لا كيلَ لكم قليلًا ولا كثيرًا، وخلاصةُ قولِه لهم: "﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِ بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ داخلٌ في حُكمِ الجزاءِ مجزومًا، عطْفٌ على قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، كأنّه قيل: فإن لم تأتوني به، تُحْرَموا ولا تَقْرَبوا. أو أن يكونَ بمعنى النّهي"[3].

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الإنشاءِ بالجملةِ الخبريّةِ:

الجُملةُ الخبريّةُ المُتضمِّنةُ للإنشاءِ أبلغُ منَ الإنشائيّةِ المَحْضَةِ

قوله تعالى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، وفيه أنّ التّعبيرَ بالخبر مُرادًا به الإنشاءَ والطّلبَ، أبلغُ منَ التّعبير بالطّلبِ المحْضِ؛ لأنّه يؤكّدُ مضمونَ الطّلب، ويزيدُ عليه بذكْرِ نتيجتِه إن لم يقوموا بأداء المطلوبِ منهم، حتّى تغدُوَ هذه النّتيجةِ خبرًا منَ الأخبار، فيكونُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 401.
(2) القطّان، تيسير التّفسير: 2/258.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/136.

﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، فإذا لاحت أمامَ أعينِهم هذه النّتيجةُ وقرعت أسماعَهم، عرفوا أنّه لا حيلةَ لهم إلّا الإتيانُ بأخيهم.

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُمْ﴾:

اللّامُ في ﴿لَكُمْ﴾ هي لامُ الاختصاصِ، والغرَضُ منها تعريفُهم بأنّهم المَخْصوصون بعدمِ الكيْلِ دونَ غيرِهم إن لم يَأتوا بأخيهم.

الإشـــارةُ إلى اخْتِـصاصِـهـم بالحِرمانِ الّذي في العبارةِ

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿عِندِى﴾:

في التّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿عِندِى﴾ وعدمِ الاكتفاءِ بقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، ليُحرّضَهم على الالتزامِ بما شرطَه لهم، وإلّا حُرِموا الكيلَ مُطلقًا عنده، وعند غيرِه؛ لأنّه إذا لم يكن لهم كيلٌ عنده، فعدمُ حصولِ كيْلٍ لهم عند غيره بالطّريق الأوْلَى[1]، وذلك لعموم القحْطِ في البلاد، وعدمِ وجودِ الميرَة إلّا في خزائن مصْرَ، وأيضًا لَما وجدوه عنده من إيفاءِ الكيلِ وحُسن الإنزالِ، والضّيافةِ بما لن يَجدوه عند غيرِه.

التّـخـريـضُ عـلى الامْـتِـثـالِ والالتزامِ بشرْطِه عليهم هو سرُّ التّعبيرِ بـ(عندي)

بَلاغةُ الكنايةِ:

ممّا يحملُه قوله تعالى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، منَ البيانِ الكنايةُ عن منعِهم منِ ابتياعِ الطّعامِ[2]، وذلك لأنهّم أهلُ رَعْيٍ قد يَجْتَلبون معهمُ الصّوفَ والوَبَرَ، ليتّجِروا فيه ويَبْتاعوا بثمنِه طعامًا، فتضمّنَ قولُه: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ المنْعَ من ذلك أيضًا.

غـرَضُ الكنايةِ بيانُ مَنْعِهم من مُجْمَلِ التّجارةِ والمعاوضةِ بيعًا وشراءً

معنَى الواوِ في: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، إمّا أن تكونَ عاطفةً أو استئنافيّةً[3]، وأثرُ هذا الاختلافِ سيظهرُ في بيان نوعِ (لا) وهل هي ناهيةٌ أو نافيةٌ.

مـنْـعُ الاقـتـرابِ تحـذيـرٌ مُـسْـبـقٌ ومَـلـمـحٌ لـفـهْـمِ الدّلالةِ مُبينٌ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/18.

(لا) بين النّهْيِ والنّفْيِ في السّياقِ:

تحقيقُ القولِ في مَنْحَيْيِ النّهيِ والنّفيِ، وأثرُ ذلك في الدّلالةِ

اختُلِفَ في (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ على قولَيْن:

الأوّلُ: قيل: ناهيةٌ والمضارعُ بعدها مجزومٌ بحذف النّونِ، والنّونُ المذكورةُ في الفعل هي نونُ الوقاية، والياءُ المحذوفةُ تخفيفًا في محلِّ نصْبٍ مفعولٍ به.

واختُلِفَ في الواو بناءً على كوْنِ (لا) ناهيةً فقيل: هي الاستئنافيّةُ؛ لئلّا يلزمَ عطفُ الإنشاء على الخبر. وقيل: بل عاطفةٌ وأُجيبَ عن الاعتراض بأنّ العطفَ مُغتفرٌ فيه هنا؛ لأنّ النّهيَ يقعُ جزاءً[1]؛ أيْ إنّ هذا النّهيَ هو جزءٌ منَ الجزاءِ المُوقَّعِ عليهم، كنَفْيِ الكيلِ، فهو معطوفٌ عليه لأجل ذلك.

والثّاني: قيل: نافيةٌ، وأنّها معطوفةٌ على محلّ جملةِ الجوابِ ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، وهذا وجْهٌ.

ووجْهٌ آخرُ: أنّه نفيٌّ مستقلٌّ، غيرُ معطوفٍ على جزاءِ الشّرطِ، وهو خبرٌ في معنى النّهي، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة: 197][2]، وهذا الوجهُ مُنْبَنٍ على كون الواوِ استئنافيّةً لا عاطفةً.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾:

بيانُ النّهيِ عنِ القُربِ من حيث تجدُّدُه وتَكرارُه

عبَّرَ بالمضارع في ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ لدلالتِه على الاستقبالِ، "وفيه دليلٌ على أنّهم كانوا على نيّةِ الامتيارِ، مرّةً بعد أخرى، وأنّ ذلك كان معلومًا له ﷺ"[3].

نُكتةُ النّهْيِ عنِ القُرْبِ:

النّهْيُ عنِ القُرْبِ أبلَغُ في الدّلالةِ على ما نَهاهُم عنه

وجَّه ﷺ نهيَه إليهم بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدلَ (ولا تأتون)؛ لأنّ النّهْيَ عنِ القُرْبِ أبلغُ في الدّلالةِ على ما نهاهُم عنه، وهو مجيئُهم بدون

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/11.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/517، والخطيب وآخران، التّفصيل: 7/18.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/289.

أخيهم منَ النّهي عنِ الإتيان تمامًا، كما أنّه حين أراد المبالغةَ في النّهي عنِ الصّلاة حالَ السُّكْر، سلَّطَ النّهيَ على القُرْب، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النّساء: 43].

بَلاغةُ الكنايةِ في النّهْيِ عنِ القُرْبِ:

لفظُ عدمِ القُرْبِ دالٌّ بقوّةٍ عن قطْعِ المنفعةِ المُرتجاةِ منَ القُرْبِ

في التّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ كنايةٌ عن عدمِ العودةِ إلى مصرَ إذا لم يَلتزموا ما شرَطَه عليهم، والمعنى: "أيْ: إنْ لم تأتوني بأخيكم هذا، فلا كيْلَ لكم عندي؛ أيْ: لا أكيلُ لكم شيئًا بعد هذا، إذا جئتم تطلُبون كيلًا جديدًا"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المجيءُ) و(الإتيانُ):

المجيءُ يُنْبئُ عنِ الشّدّةِ، والإتيانُ عنِ السُّهولةِ

يوجدُ بين المجيءِ والإتيانِ تقاربٌ دلاليٌّ شديدٌ، حتّى ذكرَ العسكريُّ أنّه: كثُرَ اسْتِعْمالُ أحدِ اللَّفْظَيْنِ في مَوضِعِ الآخرِ[2]، وممّا ذُكرَ في التّفريق بينهما، أنّ لفظَ المجيء يدلُّ على الشّدّةِ، بخلاف الإتيان فهو مجيءٌ كذلك، ولكن بسهولة[3]، وعلى هذا، فحين يأتي التّعبيرُ بالمجيء فإنّه يدلُّ على أنّ المُعبَّرَ عنه به، هو أمرٌ شديدٌ صعبٌ، أو هو أصعبُ ممّا يكونُ التّعبيرُ فيه بالإتيانِ[4].

(المعرفةُ) و(العلمُ):

كلُّ معرفةٍ علمٌ، وَلَيْسَ كلُّ علْمٍ معرفَةً

نذكرُ أنّ المعرفةَ أخصُّ منَ العِلم؛ لأنَّها علمٌ بِعَيْنِ الشَّيْءِ مفصّلًا عَمّا سواهُ، والعلمُ يكون مُجملًا ومفصّلًا. والمعرفةُ مأخوذة من: عِرفان الدّار، يعني أثارَها الَّتي تُعرف بها. فَكلُّ معرفةٍ علمٌ، وَلَيْسَ كلُّ علمٍ معرفَةً، وذلك أنّ لفظ المعرفة، يُفيدُ تَمْييزَ المعلوم من غيرِه، ولفظُ العلمِ لا يُفيدُ ذلك إلّا بضربٍ آخرَ منَ التَّخْصيص، في ذِكر المَعْلومِ[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/289.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(4) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 97.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»